الاستعراب الإسباني بالمغرب

خوصي ماريا لورشندي نموذجا(1836م - 1896م)

- **عبد العالي احمامو - دكتوراه في الأدب**
جامعة ابن طفيل - القنيطرة - المغرب.

1 -المدرسة الإسبانية

لم تحظ المدرسة الإسبانية في مجال الاستشراق بالمتابعة والتقصي العلمي الدقيق، على غرار باقي المدارس كالفرنسية والألمانية وغيرهما،على الرغم ممّا تحفل به من أعلامٍ نقشت أسماءها بالذهب في هذا الميدان، وخلّفت أعمالاً ضخمةً في حاجةٍ إلى إعادة القراءة والدراسة. وإن كان من الضروري الإشارة إلى بعض من ساهم بالبحث والدراسة في هذا الباب؛ مثل عبد الله عنان، وإحسان عباس، ومحمود علي مكي، وحسين مؤنس وغيرهم من أهل المشرق، كما نسجل بعض الأعمال للمغاربة ويأتي في مقدمتهم محمد بنشريفة، وعبد الله كنون، ومحمد حجي، وإبراهيم حركات، أمّا من الجانب الغربي فنذكر: كوندي، ودوزي، وسكوت، ولاين بول، ومانويلا مانثا ناريس صاحب «**المستعربون الإسبان في القرن 19**» الذي طبع سنة 2004 بالقاهرة بعدما قام بترجمته جمال عبد الرحمن.

ولعل ما أبدعه الموريسكيون في بلاد الأندلس كان له الأثر الإيجابي في إقلاع أوروبا والاستفادة منه، وذلك من خلال الاهتمام به وترجمته والعمل على العناية به، حيث ساهم في ذلك نخبة من المستشرقين الذين

أصبح من الضروري الاطلاع على ما أنتجوا، وتناوله باعتباره إشكالاً معرفيّاً إبستمولوجيّاً قصد الاستفادة منه والتمكن من آلياته وغزارة مواضيعه[1].

وإن كان هناك خلطٌ بين الاستشراق والاستعراب، على اعتبار أن المستشرقين الإسبان كانوا يحبون مناداتهم بالمستعربين، فإن أهم إشارةٍ يمكن تسجيلها هي أن المدرسة الإسبانية تُعدُّ أوّلَ استشراقٍ أوروبيٍّ، ولد على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، قبل أن يتخذ مفهوم الاستشراق الدلالة المعروف بها اليوم، وذلك بعد فتح العرب لشبه الجزيرة الإيبيرية أوائل القرن الثامن ميلادي، الشيء الذي ساهم في عملية تحولٍ كبيرةٍ في مجتمع هذه البلاد وفي أوضاعها الدينية والثقافية[2].

وقد اعتنق معظم أهل شبه الجزيرة الإيبيرية الإسلام، مما ساهم في تأسيس دولة دينها الإسلام ولغتها العربية بإسبانيا، مع وجود أقليةٍ احتفظت بديانتها المسيحية، الشيء الذي أرخى بظلاله على مقاومةٍ نشأت للمحافظة على المسيحية، ما فتئت أن تطورت من صراعٍ سياسيٍّ وعسكريٍّ إلى صراعٍ فكريٍّ مثّله من جانب المسيحية عددٌ من رجال الكنيسة ممن عاشوا في وسطٍ إسلاميٍّ، وأتقنوا اللغة العربية[3].

وتنبغي الإشارة إلى أن هناك من يرى أن اسم الاستعراب سواءً عند من ارتضوه أو من لم يرتضوه، لا يخرج عن مدار الاستشراق التصوري، والفكري، والثقافي، الذي لا يخرج عمّا يمثله الاستشراق من مشتركٍ ثقافيٍّ يعالج وقفة الدارس الغربي للتراث الإسلامي والعربي التي تمتاح من الذات أو الهوية التي قد تختلف مكوناتها العقدية، واللغوية، والحضارية من شعب لآخر. وإن كان هناك من يحبذ التفريق بين المستعربين والمستشرقين الإسبان، ومن بينهم محمود صبح الذي يرى »أنه يجب التمييز بين المستعربين والمستشرقين في إسبانيا. المستعربون هم الذين يهتمون بالدراسات العربية

(1) للمزيد من التفاصيل أُنظر: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دوزي: المسلمون في الأندلس ترجمة حسن حبشي. ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة الطاهر أحمد مكي. عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس.

(2) أنظر: عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس.

(3) محمود على مكي، فرانشسكو كوديرا، دار الكتب والوثائق 2003، ص3.

الإسلامية، وبخاصة الأندلسية منها، والمستشرقون هم الذين يهتمون بقضايا الشرق على العموم، وبخاصة قضايا الشرق الأقصى»[1].

ويبقى أنّ مفهوم الاستعراب في مفهومه العلمي «**علمٌ يختص بدراسة حياة العرب وما يتعلق بهم من حضارٍ وآدابٍ ولغةٍ وتاريخٍ وفلسفاتٍ وأديانٍ، وله أصوله وفروعه ومدارسه وخصائصه وأصحابه وأتباعه، ومنهجه وفلسفته وتاريخه وأهدافه، وأما المستعرب فهو عالمٌ ثقةٌ في كل ما يتصل بالعرب أو باللغة العربية والأدب العربي، أو بالأحرى المستعرب هو من تبحر من غير أهل العرب في اللغة العربية وآدابها، وتثقف بثقافتها وعني بدراستها**»[2].

ولقد تميزت إسبانيا عن غيرها من الدول الأوروبية الأخرى بأنها «**كانت سباقةً إلى الاحتكاك بالعرب والاستفادة من حضارتهم وثقافتهم، كما أن اهتمام الإسبان اتجه بالدرجة الأولى إلى دراسة الثقافة والفكر العربي الإسلامي الذي أنتجته العبقرية الأندلسية، فأدوا للتراث العربي والإسلامي خدماتٍ لا تُنكر سواءً بأبحاثهم ودراساتهم الجادة، أو بتحقيقاتهم للتراث الأندلسي واكتشاف مصادره ونفض غبار الإهمال عن كثيرٍ من المؤلفات المهمة التي لولاهم ما رأت النور، كما قاموا بوضع فهارس يستفيد منها الباحثون والمهتمون بالتراث الأندلسي**»[3].

لقد تعددت أوجه خدمة الاستعراب الإسباني للأدب العربي بالأندلس خاصةً باهتمامه بجمع المخطوطات وتوثيقها والاهتمام بها؛ حيث قام هذا الاستعراب فعلاً بجمع المخطوطات الأدبية الأندلسية شعراً ونثراً، وتوثيقها متناً وتدويناً وتحقيقاً وأرشفةً، وتأريخ معطياتها سياقاً وتحقيباً ومرجعاً، وترجمتها إلى اللغة الإسبانية في مختلف لهجاتها المتنوعة، ودراستها مضموناً وشكلاً ووظيفةً؛ وذلك من أجل تحديد تطوّر الأدب الأندلسي، ورصد مجمل خصائصه الدلالية والفنية والجمالية.

---

(1) محمود صبح، الاستعراب والاستشراق في إسبانيا، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد مزدوج 4-5، 1980، ص165.

(2) أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، 1974، ص34.

(3) محمد القاضي، الاستعراب الإسباني والتراث الأندلسي من خلال ثلاثة نماذج: خوان أندريس، غيانغوس، ريبيرا، مجلة التاريخ العربي، 16، خريف 2000، ص1.

كما لعب المستعربون الإسبان دوراً مهمّاً في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الممالك المسيحية بشمال إسبانيا وجنوب فرنسا، وكانوا أداة وصلٍ بين شطرَيْ إسبانيا، ولم ينقطعوا عن التنقل بين أراضي المسلمين وأراضي النصارى في الشمال، فعملوا بذلك على نشر الثقافة الإسلامية بين أهل الشمال خاصةً عن طريق ترجمة كتب المسلمين، وشاركهم في ذلك اليهود حيث اضطلعوا بدورٍ كبيرٍ في ترجمة المصنفات العربية إلى اللاتينية والقشتالية، ما جعل الفقيه الإشبيلي ابن عبدون - في القرن الثاني عشر ميلادي - يدعو إلى أنه «لا يباع من اليهود ولا من النصارى كتاب علمٍ إلا ما كان من شريعتهم. فإنهم يترجمون كتب العلوم وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين[1].

ويجسد ما سبق صورة حركة الاستعراب المبكر في إسبانيا والذي لم يصلنا من آثاره ومخلفاته الأدبية والفكرية الشيء الكثير، خاصةً مع ما قامت به حركة التعصب المسيحي بعد سقوط غرناطة من تعقبٍ للعرب وإحراقٍ للكتب العربية وتحريمٍ لقراءة اللغة العربية، وغيرها من العوامل التي حالت دون وصول المؤلفات والمصنفات الأولى للمستعربين الإسبان.

وإن كان لا يفوتنا ذكر تلك الصورة التي طبعت أعمال بعض المستشرقين التي تميزت بالتعصب، والنظر إلى الثقافة التي يدرسونها بتعالٍ واحتقارٍ، ومن بين من يمثل هذا التيار خوليان ريبرا الذي كتب «**كانت العربية، في الثقافة كما في الحياة، عديمة الدلالة طوال عقودٍ في إسبانيا غريبة العرق والثقافة والحياة**»[2].

ولم تخل ساحة الاستشراق الإسباني من أسماء درست التراث العربي الإسلامي الدراسة الموضوعية، والنقل الرصين الذي من شأنه أن يساهم في تواصل هذه الحضارة مع الحضارات الأخرى، والتعرف على منجزاتها ومقوماتها، كما من شأنه أن يغير نظرة القارئ الإسباني والأوروبي للثقافة العربية، خاصةً وأنه مشبع بأحكامٍ مسبقةٍ.

(1) ابن عبدون، الإسلام في الأندلس وصقلية وأثره في الحضارة والنهضة الأوروبية، رسالة الجهاد الليبية، ع57، 1987، ص 84.

(2) خوان غويتسولو، في الاستشراق الإسباني، ترجمة كاظم جهاد، الفنط للترجمة باللغة العربية، 1997، ص224.

وأسَّسَت مدارسُ لغرض الدفاع عن دور الحضارة العربية الإسلامية في تاريخ إسبانيا، وضد تعصب بعض المستشرقين، ومن بينها مدرسة فرانسيسكو كوديرا المتوفى سنة 1917، حيث ضمت مدرسته عددا من المستشرقين الإسبان المعتدلين الذين ارتبطوا برباط الإنصاف التاريخي للعصر الإسلامي الإسباني وعُرفوا بأسرة كوديرا، وزاد من تشبثهم بالعربية إطلاق لفظة (بني) أي (أبناء) عليهم ليصبحوا (بني كوديرا)، ويذهبون إلى أن إسبانيا دون احتساب المرحلة الإسلامية تعتبر دولةً عاطلةً عن الأمجاد التاريخية(1).

وتبقى أهم ما عرف عن هذه المدرسة المقولة الشهيرة التي قالها بيدرو مارتينث مونتابث: «**إن إسبانيا ما كان لها أن تدخل التاريخ الحضاري لولا القرون الثمانية التي عاشتها في ظل الإسلام وحضارته، وكانت بذلك باعثة النور والثقافة إلى الأقطار الأوروبية المجاورة المتخبطة آنذاك في ظلمات الجهل والأمية والتخلف**»(2).

كما عُرفت إسبانيا بتميزها عن باقي الدول الأوروبية الأخرى حيت كانت سباقةً إلى الاحتكاك بالعرب والاستفادة من حضارتهم وثقافتهم، ما جعلها تتبوأ مكانةً خاصةً في الاستشراق بصفةٍ عامةٍ والاستعراب على وجه الخصوص، خاصةً وأن اهتمامها انصبّ بالدرجةٍ الأولى على دراسة الثقافة والفكر العربي الإسلامي الذي كان نتاجاً خالصاً للعبقرية الأندلسية، الشيء الذي ساهم إيجاباً في خدمة هذا التراث بأبحاثهم ودراساتهم الجادة والموضوعية، دون إغفال تحقيقهم للتراث الأندلسي الذي ساهموا فيه باكتشافهم للعديد من المصادر والمؤلفات المهمة التي لولاهم لما رأت النور، إضافة إلى العديد من الفهارس التي وضعوها ليستفيد منها المهتمون والباحثون.

(1) Youness EL M’rabet, cotemporary spanish orientalism its determinants, particularity and authors, Semat, Vol 2 N° 1, 1332- Jan 2014, P 78.

(2) الكلمة جاءت ردا على مستشرق إمريكي من جامعة شيكاغو خلال المؤتمر الذي أقامته الحكومة الإسبانية عام 1976م، حيث ألقى بحثا في المؤتمر خصصه للحملة على الإسلام والمسلمين، وانتهى به الأمر بالإعلان أن أعظم ما قام به الإسبان هو طرد العرب والمسلمين من إسبانيا.

2 - الاستشراق الإسباني

سبقت الإشارة إلى أن الكثير من الإسبان الذين يهتمون بالدراسات العربية الإسلامية يفضلون تسميتهم بالمستعربين عوض المستشرقين، وذلك نظير ما قاموا به خدمةٍ لدراسة اللغة العربية وآدابها، وحضارة المسلمين وعلومهم في شبه الجزيرة الإيبيرية بصفةٍ خاصةٍ، دون أن يهتموا بلغاتٍ شرقيةٍ أخرى كالفارسية والتركية والأردية وغيرها[1].

ويزكي الطرح نفسه حسن الواركلي الذي يرى أحقية تسمية المستشرقين الإسبان بالمستعربين «**الاستعراب أدلّ من أيِّ تسميةٍ أخرى على حقيقتها مضموناً وتاريخاً**»[2].

وقد أطلقت كلمة المستعربة أو المستعربين في الأندلس على العناصر المسيحية التي استعربت لغتها وعاداتها، ولكنها بقيت على دينها محتفظةً ببعض تراثها اللغوي والحضاري، خاصة وأن الدولة الإسلامية كفلت لهم حرية العقيدة، فأبقت لهم كنائسهم وأديرتهم وطقوسهم الدينية التي كانت تقام باللغة اللاتينية[3].

وكانت البداية حين اتضحت رغبة عددٍ كبيرٍ من رجال الكنيسة في معرفة عقيدة الإسلام، خاصةً بعد فتح شبه الجزيرة الإيبيرية، وإن تعددت أوجه هذه الرغبة بين الاعتدال والموضوعية أحياناً، وبين التهجم المتحيز أحياناً أخرى، إلى أن صارت الأندلس وجهة الطلاب النصارى من جميع أنحاء أوروبا، ففتحت قرطبة أبوابها على مصراعيها أمام طلبة العلم والمعرفة، فنهلوا من معارفها، وتعلم الكثير منهم اللغة العربية، وقاموا بتدريس كتب العرب في جامعاتهم كمؤلفات ابن سينا وابن رشد وغيرهما التي درست إلى نهاية القرن الخامس عشر[4].

وكان لغياب الأندلس عن ذاكرة الإنسان العربي، بعد سقوطها في أيدي الإسبان، العامل المؤثر في حضورٍ قويٍّ للأندلس والأندلسيين في واقع

---

(1) محمد القاضي، مرجع سابق، ص 1.

(2) حسن الواركلي، الاستعراب الإسباني والتراث الإسلامي الأندلسي، مجلة المناهل، ع 56، 1997، ص60.

(4) أحمد المختار العبادي، الإسلام في الأندلس، مجلة عالم الفكر، عدد 2، 1979، ص60.

محمود علي مكي، مرجع سابق، ص 3.

وحياة الأمة الإسبانية التي تشكلت في شبه الجزيرة الإيبيرية عقب سقوط غرناطة.

لقد نشط الاستشراق الإسباني منذ مطالع القرن التاسع عشر، وظهر التراث الأندلسي لأوائل المستشرقين الإسبان كنزاً ثميناً أقبلوا عليه جيلاً بعد جيل، يدرسونه ويقومونه، مقدرين ما ينطوي عليه من الإبداع والمعارف والعلوم، بل هناك من اعتبر المخطوطات الأندلسية تراثاً لهم فشرعوا في ترجمتها والاستفادة من مادتها الغزيرة، الأدبية والعلمية، مثل تأليف ابن الفرضي، وابن شكوال، والضبي، وابن الأبار.

وقد عرف عن المدرسة الإسبانية في نشأتها أنه بخلاف حركة الاستشراق التي تعنى بتراث الشرق، عربيّاً كان أم غيرَ عربيٍّ، فإنها حصرت اهتمامها بالتراث في نطاق المكتوب منه باللغة العربية، وفي أحايينَ كثيرةٍ تحصره، إلّا في ما قل وندر، حول تراث الأندلسيين، وفي كثير من الأحيان اعتبر ذلك الاهتمام ولعاً بما أنتجه الأندلسيون، وهذا ما تأسف عليه الراهب القرطبي بقوله: «**إن إخواني في الدين يجدون لذةً كبرى في قراءة أشعار العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربيّاً جميلاً وصحيحاً. وليت انصرافهم هذا يؤدي إلى مساعدتهم على دحض المذاهب الإسلامية أو الرد عليها، بل على العكس لكي يتمكنوا من هذه اللغة ومن آدابها وليجيدوا استعمالها أحسن فأحسن... إن الشباب المسيحي الذي تميز بذكائه وعبقريته لا يجد اللذة والمتعة الروحية إلا في قراءة الكتب العربية وآدابها وينفقون الأموال الطائلة على شراء هذه الكتب وتشكيل مكتباتٍ ضخمةٍ، وينادون على رؤوس الأشهاد: أن لا آداب توازي الآداب العربية... كلموهم عن الكتب المسيحية يجيبوكم بازدراء: «إنها لا تستحق الانتباه..»**.. آه ما أتعسنا! إن المسيحيين منا قد نسوا لغتهم، وبين ألف شخصٍ منهم لا يوجد واحدٌ يحسن كتابة رسالةٍ إلى صديقه باللغة اللاتينيّة، ولكن إذا طلبته للكتابة باللغة العربية أجاد كلٍ الإجادة بحيث إنّ الكثيرين من إخواننا في الدين يحسنون اللغة العربية أفضل من العرب أنفسهم[1].

(1) سيمون الحايك، عبد الرحمن الأوسط، المطبعة البوليسية، بيروت، ص 166- 167.

أما بخصوص ما خلفه المستشرقون الإسبان عن المغرب، فقد تعددت الدراسات والمجالات، ففي التاريخ مثلاً، نجد مجموعة كبيرة من الكتب والدراسات يتعلق الكثير منها بالعلاقات بين المغرب وإسبانيا، وبعضها يتعلق بمدن وأماكنَ وآثارٍ وكتاباتٍ مغربيةٍ، وهكذا نجد الأب دي لاتُور يكتب مثلاً: معلوماتٌ تاريخيّةٌ عن مدينة فاس، ورحلةٌ من طنجة إلى مكناس، ونجد كوديرا يكتب كتابا عن أفول المرابطين واندثارهم ويردّ فيه على دوزي الذي تعصب لملوك الطوائف وشوّه صورة عصر المرابطين. كما خلف روبليس كتاباً في ثلاثة أجزاء عن الأساطير المغربية في إسبانيا، وكتب لونكاس عن قراصنة المغرب ب «**غاليسيا**» في القرن السابع عشر، في حين كتب كونساليس بالانْسْيا عن مسلمي شمال إفريقيا والنصارى، وكتب الأب كارْلوس كيروسْ عن ابن خلدون، وابن بطوطة، وعن المرابطين[1].

وقد اهتم الإسبانيون بالمخطوطات جمعاً ونشراً وترجمةً، حيث نجد ترجمة فرنانديس إي كونثاليس لكتاب «**البيان المغرب**» لابن عذارى إلى الإسبانية، والتصحيح الذي قام به إدواردو سابيدرا ل «**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**» وهو الجزء الذي لم ينشره دوزي، كما حقق فيرنه خينيس كتاب «**بسط الأرض في الطول والعرض**» لعلي بن سعيد المغربي، إضافةً إلى اهتمام كوديري ثايدين بدراسةٍ عن الكتب القديمة والحديثة في المغرب، والجزء الثاني من تاريخ المرابطين والموحدين للبرجي[2].

ويبقى أهم ما يميز ملامح الاستشراق الإسباني من خلال دراسة محمد فتح الله الزيادي[3]:

1. يعتبر الدافع العلمي المحرك الأول للاستشراق الإسباني، فالرغبة في تعلم اللغة العربية من أجل دراسة وترجمة الكتب العربية كانت السبب الرئيس في إقبال الإسبان على حقل الاستشراق، وإلى جانب ذلك يبرز

(1) عبد الكريم غلاب، العرض التمهيدي لموضوع الندوة السادسة للجنة القيم الروحية والفكرية: المغرب في الدراسات الاستشراقية، مطبوعات، ص 32 أكاديمية المملكة المغربية، مراكش، 1993،

(2) نفسه 33.

(3) محمد فتح الله الزيادي، الاستشراق أهدافه ووسائله، دار قتيبة، ط 1، 1998، ص 91.

الدافع الديني المتمثل في المستشرقين الرهبان الذين شكلوا تيّاراً مهمّاً في ميدان الاستشراق الإسباني.

2. يكاد الاستشراق الإسباني أن يكون مشابهاً للاستشراق الألماني في التركيز على التراث العلمي العربي، والاهتمام به حفظاً وفهرسةً وتحقيقاً ونشراً، ولعله امتاز عنه بامتلاك جزءٍ كبيرٍ من هذا التراث في المكتبات الإسبانية.

3. على الرغم من أن القرن العشرين شهد انخفاضاً واضحاً في العمل الاستشراقي من حيث المستوى الكمّيّ، إلا أننا نجد شذوذاً في الاستشراق الإسباني يمثله عدد من المستشرقين الإسبان وفي طليعتهم آسين بلاسيوس الذي خلف ما يقرب عن مائتين وخمسين كتاباً وبحثاً بعضها في عدةِ مجلداتٍ، وكذلك غونزاليث بلانسيا الذي خلف ما يقرب عن ثلاثمائة وعشرين كتاباً وبحثاً، وهو عددٌ يذكرنا بما تميز به الألمان في مراحل الاستشراق الأولى من تفرغ للبحث والإنتاج العلمي.

. له نشاطٌ ملحوظٌ في ترجمة الكتب العربية ونشرها، وهو الأمر الذي كان له، إلى جانب الاستفادة العلمية الأوروبية، أثرٌ في تعريف الإنسانية بالفكر العربي الإسلامي، ومن أشهر المترجمين إميلو غرسيا غومث.

5. شهد الاستشراق الإسباني نشاطاً كبيراً في القرن التاسع عشر وما بعده وكان ذلك بسبب الإقبال الكبير للباحثين الإسبان على ميدان الدراسات الشرقية الذي جذبهم إليه وفرة المخطوطات العربية التي ضمتها المكتبات الإسبانية.

6. كان للقساوسة والرهبان أثرٌ واضحٌ في تنشيط الاستشراق الإسباني، وذلك بانخراطهم الشخصي في هذا الميدان، أو بدفعهم الباحثين الآخرين إليه، ومن أشهر هؤلاء يوحنا الأشقوبي، وبدرو القلعاوي، وريموندو مارتيني، وكانيس.

7. فهرسة المخطوطات العربية أحد المجالات التي اهتم بها المستشرقون الإسبان، وكان لهم فيها دورٌ واضحٌ، ومن الأسماء اللامعة في الفهرسة: غينغوس، وسلفادور غوميث، وألاركون.

8. يعتبر المعهد الإسباني العربي للثقافة الذي يديره المستشرق آسين بلاسيوس واحدا من أهم الأماكن التي نشط فيها الاستشراق الإسباني، كما تعتبر مكتبة الأسكوريال أهم المكتبات التي انطلق منها؛ وذلك لما تحويه من نفائس التراث العربي الإسلامي.

والأكيد أن إسبانيا تعتبر أقوى دول أوروبا صلةً بالشرق؛ لقربها الجغرافي منه أوّلاً، ولاحتضانها أروع وأعظم حضارةٍ أسسها العرب خارج ديارهم دامت قرابة خمسة قرونٍ كانت من القوة بحيث تركت آثارها ماثلةً في الحياة الإسبانية على مختلف الأصعدة حتى يومنا هذا، فالأثر العربي يبرز في كل مرفقٍ من مرافق الحياة الإسبانية ابتداءً بالأشكال الهندسية المعمارية، ومروراً بالعادات والتقاليد، وانتهاء بالمكتبات التي تمتلئ بنتاج العقول العربية الإسلامية في مختلف العلوم، التي كانت ولا تزال الأساس المرجعي الذي انطلق منه الغرب في بناء حضارتهم. وبعد هذا الجرد التاريخي لأهم ما يميز المدرسةَ الإسبانيةَ والمستشرقين الإسبان، ننتقل للحديث عن أبرز شخصيات هذه المدرسة في القرن التاسع عشر، وأحد أبرز أعلام الاستعراب الإسباني.

3 - خوصي ماريا لورشندي

من الأهمية بمكانٍ، قبل التطرق إلى ما خلفه خوصي ماريا لورشندي، أن نقف عند أبرز محطات حياة هذا المستعرب الإسباني، والسمات التي ميزت مساره الاجتماعي والعلمي. والجدير بالذكر أن هذا الباحث لم يحظ بكثير من الاهتمام من طرف الباحثين في الاستشراق، أو المهتمين بالدراسات اللهجية المغربية، حيث نجد شحّاً واضحاً للمعلومات الخاصة بالراهب الفرنسيساكني الإسباني، وتتناقل معظم المراجع ما جاء عند عبد الرحمان بدوي الذي يبقى غيرَ كافٍ، ولا يوازي قيمة مستعربٍ قدم الشيء الكثير للمغرب، لا من الناحية الاجتماعية من خلال مجملٍ الأعمال والمشاريع التي أنجزها وسهر عليها، ولا من الجانب العلمي المتمثل في الدراسات والأعمال التي خلفها وساهمت بشكلٍ كبيرٍ في إرساء الأسس واللبنات الأولى لعلم اللهجات بالمغرب.

ويبقى أهم ما جاء في موسوعة المستشرقين حول لورشندي، أنه ولد

سنة 1836م في إقليم سان سبستيان (شمال غربي إسبانيا، على الحدود الفرنسية)، وانخرط في الرهبانية الفرنسيسكانية في 14 يوليو سنة 1857م، وأوفدته «**هيئة التبشير المسيحي**» التابعة للبابا في روما إلى المغرب، فرأى أنه لا يستطيع القيام بالتبشير إلا بعد تعلم اللغة العربية الفصحى منها واللهجة العامية المنتشرة في المغرب.

كما يضيف عبد الرحمان بدوي أن لورشندي ألف كتاباً في »مبادئ العربية العامية الدارجة عند أهل مراكش« **(مدريد، سنة 1873). وفي إثر ذلك عين مدرساً للغة العربية في كلية البعثات التبشيرية القائمة في مدينة شنت يعقوب شمال غربي إسبانيا**[1].

ونقرأ عند مصطفى بوشعراء أن لورشندي كان كبير الرهبان بالمغرب الذي حل به سنة 1862م بعد حرب تطوان. وحيث إنه كان مستعربا فقد كانت له اتصالاتٌ بالدوائر المخزنية العليا، فرافق الطريس إلى روما سنة 1888م لمقابلة البابا وتهنئته، وشارك أيضا في سفارةٍ أخرى إلى إسبانيا. زد على ذلك أنه كان على اتصالٍ بأعيانٍ مغاربةٍ كان يتراسل معهم، ويتسمى في المراسلات بيوسف الجندي، كما كانً من المتحمسين لتنصير المغاربة ولاسيما بالصحراء الجنوبية[2].

أما في الجهة المقابلة، فقد حضر لورشندي في كتابات الإسبان أنفسهم، أبرزهم خوان لويس نافال موليرو المؤرخ الرسمي ليتشيبيُونا الذي نشر معلوماتٍ مهمةً عن الباحث الفرنسيسكاني، فإضافةً إلى تاريخ ميلاده (24 فبراير 1836م)، ووفاته التي كانت بطنجة يوم 9 مارس 1896م، نجد إشارةً إلى أن الأب لورشندي عُرِفَ بكونه مستعرباً، وكاتباً دبلوماسيّاً، وعضو الأكاديمية الملكية الإسبانية (1874)، كما تقلد منصب عضوٍ فخريٍّ في الجمعية الإسبانية ل Africanists (المهتمين بالأفارقة وإفريقيا والمستعمرين)، دون نسيان الجوائز المهمة التي حصل عليها من إيزابيلا الكاثوليكية، كما يحتفظ تمثالٌ في الساحة الأمامية بمريم تشيبيونا بذاكرته[3].

(1) عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1993، ص 514.

(2) مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، مطبعة المعارف الجديدة، ج 4، 1989، ص 1404.

(3) Juan Luis Naval Molero, Cronista oficial de la villa de Chipiona, EL PADRE JOSÉ LERCHUNDI: www.chipionacronista.blogspot.com/201101//el-padre-jose-lerchundi.html (6 - 10 2016.

ونقـرأ في الدليـل الفرنسيسـكاني الإلكـتروني أن لورشـندي كان دبلوماسـياً مرموقـاً، وصديقـاً للسـلطان مـولاي الحسـن، وكان نجـم السياسـة الإسـبانية في المغـرب، وشـارك في العديـد مـن السـفارات، وقـد سـاهم عملـه في تنفيـذ وإعـداد السـفارة التـي أرسـله بشـأنها السـلطان لاوون الثالـث عـشر Leon XIII في عـام 1888 بـأن تحظـى إسـبانيا بمكانـةٍ مرموقـةٍ[1].

وقـد نشأ لورشـندي وترعـرع وسـط عائلـةٍ شـديدة التديـن، كـما أن اسـمه كان هـو خوسـيه أنطونيـو رامـون، الـذي تغـير لاحقـاً بسـبب مهنتـه إلى خوسـيه ماريـا دي سـان أنطونيـو[2].

ويؤكـد لويـس موليـرو عـلى ثـلاث محطـاتٍ رئيسـيةٍ دينيـةٍ يمكـن الحديـث عنهـا في حيـاة المسـتعرب الإسـباني: فـالأولى كانـت في 14 يوليـو 1856م؛ حيـث شـهد لورشـندي العـادة الفرنسيسـكانية في الكليـة التبشريـة بريجـو Preigo، أمـا الثانيـة فسُـجلت يـوم 24 شـتنبر/ سـبتمبر 1859م عندمـا رُسِّـم كاهنـا، في حـين المحطـة الثالثـة كانـت عندمـا أنشـد قُداسـه الأول يـوم 4 أكتوبـر مـن نفـس السـنة[3].

وقـد أطلـق عليـه لقـب الرسـول المبـشر مـن طـرف المجمـع المقـدس لنـشر الإيمـان سـنة 1861م، وفي السـنة المواليـة بتاريـخ 19 ينايـر نـزل إلى طنجـة حيـث كانـت رحلتـه محفوفـةً بالمخاطـر ومؤديـةً إلى المـوت لـولا اعتـدال المنـاخ، وتدخـل منظمـة الصحـة العالميـة إضافـةً إلى سـهر مرافقيـه عـلى حالتـه الصحيـة.

كـما تـم تعيينـه نائـب العضـو المنتـدب لشركـة بـرو سـنة 1863م، وفي حالـة غيـاب محافظهـا يتكلـف لورشـندي بالأبرشـية[4] في طنجـة حيـث يُـسرت لـه مهـام التبشـير. وبعـد عـدة تقاريـر مـن لجـانٍ مختلفـةٍ ومـن مقربـين وغربـاء، وكمكافـأة لخدماتـه الجيـدة ومهاراتـه الاسـتثنائية رغـب في الترشـح إلى رئاسـة مجلـس النـواب ببعثـة تطـوان، بالرغـم مـن كونـه لا زالا في الواحـد والثلاثـين مـن عمـره (1867)، ومـع مـرور الوقـت سـيحتل أعـلى منصـب في بعثـة الرسـول

(1) www.franciscanos.org/enciclopedia/joselerchundi.htm

(2) نفسه.

(3) Juan Luis Naval Molero, EL PADRE JOSÉ LERCHUNDI.

(4) أصغر وحدة في النظام الكنسي.

بـرو المحافـظ سـنة 1877 بعـد 15 عامًـا مـن الخدمـة. إلّا أنّ عـدم الاعـتراف بتعيين لورشـندي أدى إلى نشـوب صراعٍ خطيرٍ وغيرِ متوقعٍ بـين حكومـة مدريد والكـرسي الرسـولي، الـشيء الـذي عجـل بتقاعـد المسـتعرب الإسـباني مـن كليـة المبشريـن حيـث شـغل منصب رئيـس الجامعـة بسـانتياغو دي كومبوسـتيلا، إلا أن الـصراع لم يـدم طويـلاً حيـث بعـد العديـد مـن محادثـات التسـوية والدبلوماسـية أُذِنَ لـه بالعـودة إلى المنصـب الـذي كان فيـه[1].

وقـد أدرك لورشـندي منـذ بدايـة حياتـه التبشـيرية أن أداءه في أرض المغاربـة لا يمكـن أن يختـزل في وزارة الرسـولية البسـيطة لأنـه شـعر بميـلٍ غريـزيٍّ لدراسـة اللغـة العربيـة، كـما أراد التعـرف عـلى حضـارة وتاريـخ المسـلمين، فكـرس لذلك طاقتـه ووقـت فراغـه. وغلبـت الخلفيـة التعليميـة للبعثـة التـي كان يرأسـها بشـكلٍ واضـحٍ في تاريخهـا، وذلـك مـن خـلال اهتـمام لورشـندي بأطفـال المـدارس الابتدائيـة ومجـال التعليـم العـالي كذلـك، فبـدأ بإعـداد لوائـح لمـا سـيحتاجه في التدريـس وكل مـا مـن شـأنه أن يوفـر لهـم مـوادَّ تعليميـةً حديثـةً ومناسـبةً وكافيـةً، مـع توسـيع مجـالات التدريـس بإضافـة اللغـات الأجنبيـة الفرنسـية والإنجليزيـة إلى جانـب الموسـيقى.

وكـرس لورشـندي جهده في المجـال التعليمـي، وإن كان ذلك يقابـل باعتراضٍ شـديدٍ كـما وقـع في طنجـة عندمـا حـاول إنشـاء مؤسسـة دينيـة بعدمـا اسـتطاع جمـع الدعـم مـن مؤسسـةٍ خيريـةٍ (1883-1886)، كـما شـجع فقـر المـوارد في المغـرب لورشـندي بالاهتـمام بقطـاع التعليـم حيـث قـام بفتـح المدرسـة الثانويـة سـنة 1892م، وأسـس جمعيـة السـيدات الكاثوليكيـة سـنة 1895م التـي كانـت مسـؤوليتها البحـث عـن مـوارد لصيانـة المـدارس، دون أن ننسى عـدداً مهـمّاً مـن المشـاريع التـي لم يكتـب لهـا النجـاح، وكان مصـير معظمهـا الإخفـاق دون أن يؤثـر ذلـك في مسـار لورشـندي[2].

ومـع كل مـا قـام بـه في الجانـب الخـيري اسـتطاع أن يجنـي وينتـزع لقـب (أبـو الفقـراء) خاصـةً بعدمـا أنشـأ ثـلاث مؤسسـاتٍ يمكـن اعتبارهـا الأفضـل في

(1) Juan Luiss Naval Molero, EL padre José Lerchundi

(2) نفسه.

المجـال الاجتماعـي والخـيري؛ ويتعلـق الأمـر ببنـاء حـيٍّ للمنـازل الاقتصاديـة المنخفضـة التكلفـة لإيـواء خمسـة وثلاثـين مـن الأسر الفقـيرة سـنة 1887م، وبنـاء المستشـفى الإسـباني بطنجـة سـنة 1888م، إضافـةً إلى افتتـاح مطبـخٍ لمسـاعدة المحتاجـين سـنة 1895م. ومـع تزايـد أعـمال البعثـة إضافـةً إلى ظـروفٍ وحاجياتٍ جديـدةٍ، طالـب لورشـندي سـنة 1882م بإنشـاء مركـزٍ للتدريـب أو كليـة المبشريـن الفرنسيسـكان ملزمـةً لبعثـات كلٍّ مـن المغـرب وأراضي سـانتا، فكلفـت الحكومـة الإسـبانية لورشـندي بتنفيـذ المشـاريع بعدمـا تلقـى الدعـم والإذن لذلـك(1).

وإضافـةً إلى الأعـمال التبشـيرية التـي كان يقـوم بهـا في علاقتـه بالبعثـة الكاثوليكيـة، فقـد عـرف عـن لورشـندي اهتمامـه البالـغ بالأطفـال المحرومـين، حيـث يـرى الباحثـون أن هـذا الجانـب مـن حياتـه هـو الـذي يسـتحق الإبـلاغ عنـه والتعريـف بـه.

وعنـد وفاتـه سـنة 1896م، أشـادت الصحافـة مـن جميـع الأطيـاف بالـدور الكبير الـذي لعبـه لورشـندي باعتبـاره محاربـاً ودبلوماسـيّاً قـدم العديـد مـن الخدمـات لقضيـة الحضـارة والمصالـح المغربيـة الكنيسـية. فـكل مـا قـام بـه، وإن يـكاد يكـون منسـيّاً، فإنـه يـضيء صفحـةً تاريخيـةً حـول العلاقـات المغربيـة الإسـبانية في العقـود الثلاثـة الأخيرة مـن القـرن التاسـع عشر. ومـع وفاتـه اختفـى واحـدٌ مـن أهـم الشـخصيات في القـرن المذكـور، ومـن بـين أكـثر مـن يُسـاء فهمهـا(2).

ومـن بـين أعمالـه وكتاباتـه، تجـدر الإشـارة في هـذا الصـدد إلى مخطوطـةٍ لـه بهـا مـا يقـارب 400 صفحـة يسـلط الضـوء فيهـا عـن بعـض سـماته البـارزة، خاصـة وأن مـن عرفـوه يصفونـه بالنزاهـة وقـوة الشـخصية، وأنّـه وفيٌّ بالتزاماتـه ومسـؤولياته، ولطيـفٌ ومتواضـعٌ، ومتقشـفٌ، ونشـط بـروحٍ مبتكـرةٍ، كـما أنـه يهتم بالآخريـن بجانـب توفـره عـلى مهـارات عاليـةٍ خاصـةً في الجانـب الديبلومـاسي. وقـد عـرف عنـه أيضـاً كونـه مغامـراً ولـه قـدرةٌ كبـيرةٌ عـلى التواصـل مـع جميـع أنـواع النـاس، كـما كان رجـل صـلاةٍ محبّـاً لدعوتـه الفرنسيسـكانية والتبشـيرية.

وقـد سـاهم كلٌّ مـن اندماجـه في المغـرب، وعلمـه باللغـة العربيـة، ونكرانـه للـذات في كسـبه ثقـة وصداقـة السـلطان مـولاي الحسـن الأول، إضافـة إلى

(1) نفسه.
(2) نفسه.

تقدير الحكومة الإسبانية خاصةً وزير الخارجية آنذاك، حيث عمل لورشندي على تعزيز العلاقات السلمية ودعم المبادرات المتعددة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية للمغرب، وكان وسيطاً مترجماً لمختلف السفارات بين ملوك إسبانيا والسلطان مولاي الحسن[1].

وكان ثمرةُ حبه للغة العربية ودراسته لها، إضافة إلى علاقات التعاون مع المغاربة والأجانب الإسبان المستعربين والمثقفين، ورغبته في مساعدة المبشرين من خلال توفير الوسائل اللازمة لذلك، نَشْرَه كتاباً يخصّ نحو العربيّة ومفرداتها، ويتعلّق الأمر ب: Crestomatia arabe La سنة 1881م، ومعجماً عربيّاً إسبانيّاً سنة 1893م، إضافةً إلى «**أساسيات العربية المغربية المبتذلة** » سنة 1872م، والذي سنخصص له المحور القادم من هذا البحث للحديث عن أطروحة لورشندي ومنهجه في دراسة الدارجة المغربية.

٤ -أساسيات العربية المغربية المبتذلة عند لورشندي

سنكتفي، في هذا المحور، بالحديث عن مجموعةٍ من الأفكار والملاحظات التي صاحبت عمل لورشندي، والتي نراها مهمةً ويجب أن تحضر كذلك في عملنا هذا، آملين أن نقدم في بحثٍ قادمٍ أساسيات العربية المغربية مقارنةً بالفصحى كما جاءت عند المستعرب الإسباني.

استهل لورشندي دراسته بالحديث عن أهم الأسباب والدوافع من وراء «**أساسيات العربية المغربية المبتذلة**»، حيث ذكر منها الرغبة الصادقة في أن يكون العملُ ذَا فائدةٍ لبعض الإسبان المستقرين بالمغرب، أو الذين قد يستقرون فيه، إضافةً إلى إهداء هذا العمل لدون فرنسيسكو، مفوض إسبانيا في المغرب، نظراً للجهود التي يبذلها لصالح الإسبان، وتشجيعه للبعثات الإسبانية بالمغرب[2].

كما يشير لورشندي إلى تعدد أسماء العربية الأدبية، ومن بينها (اللغة المُتعَلمة) و (اللغة الكلاسيكية) و (اللغة المكتوبة)، إضافة إلى انتشار اللغة الشفهية في البلدان الإسلامية المختلفة، إلا أنها لا تستعمل للكتابة خاصةً من قبل المتعلمين على اعتبار أنها فسادٌ. غير أن من الخطأ أن نستنتج، مما

---

(1) www.franciscanos.org/enciclopedia/joselerchundi.htm

(2) Joseph Lerchundi, Rudiments of the Arabic Vulgar of Morocco, translation de James Maciver Macleod , The Spanish catholic Mission press, Tangier, 1900, the dedication page.

سبقت الإشارة إليه، أن العربية الأدبية والعامية نوعان لغويان متميزان عن بعضهما البعض[1].

فعلى الرغم من عدم التحدث بالعربية بالطريقة نفسها في جميع البلدان العربية، إلا أن لها القواعدَ الثابتةَ نفسها في جميع الدول المستعملة فيها، وإن تخلت العرب عن بعض قواعد العربية، بشكلٍ أكبر أو أقل في المحادثة والاستخدامات المألوفة، وفقاً لمستوى ودرجة التعلم والحضارة لكل بلدٍ على حدةٍ. ومن كل هذا يؤكد لورشندي على أن العربية الأدبية هي نفسها العربية العامية التي تم تجريدها من الصعوبات النحوية الأساسية، وخُفِضت إلى أشكالٍ أكثرَ بساطةً. فإذا كان مقدار تخلي البلدان التي تستعمل العربية، في المحادثات العامة، للقواعد النحوية موحداً، وإذا كان للحروف الهجائية المستعملة في هذه البلدان الوضوح نفسه بشكلٍ منتظمٍ وموحدٍ. وإذا كانت الكلمات نفسها مستعملةً، في سوريا ومصر والمغرب، للتعبير عن الأفكار والأشياء نفسها، فالأكيد، حسب لورشندي، أن العامية العربية ستكون واحدةً، وستخضع المطابقة نفسها في الاختلافات، وسيتم استخدامها بشكلٍ موحدٍ في جميع الأنحاء.

لكن هذا ليس هو الحال؛ فلورشندي يرى أن القواعد النحوية المتبعة في سوريا تختلف عما هو موجودٌ في المغرب، والعكس صحيحٌ، إضافةً إلى أنه يمكن التعبير عن فكرةٍ معينةٍ في المنطقة المذكورة باستعمال حروف عربيةٍ صحيحةٍ ونقيةٍ، في حين يُعبر عن الفكرة نفسها في المغرب بكلماتٍ مأخوذةٍ من لغةٍ أجنبيةٍ كالإسبانية أو الفرنسية. وكل هذه الأسباب تؤدي إلى نشوء الاختلافات المحلية، أو بالأحرى مجموعةٍ متنوعةٍ من اللهجات.

ولا يفوت لورشندي الفرصة لكي يشير إلى أن العديد من المتضلعين في العربية الأدبية (الفصحى) سيرون في نشر هذا العمل مضيعةً للوقت وأنّه عديم الفائدة، خاصةً عندما يصرح الباحث أنه تعرف على العديد من الأشخاص الذين يعادون العربية العامية، وحاول مراراً إقناعهم دون جدوى، وعليه يرى المستعرب الإسباني أنه بحاجةٍ لوضع الملاحظات التالية التي

(1) نفسه.

يراهـا إجابـات داعمـةً لفائـدة دراسـة العربيـة اللهجيـة[1]:

1 . لـن يكـونَ بمقـدور الشـخص الأوروبي التفاهـم مـع عامـة الشـعب بعـد تعلمــه العربيــة الأدبيــة (الفصحــى)، ومراعاتــه للحديــث بهــا واســتعمال قواعدهـا النحويـة، وسـيتم فهمـه فقـط مـن طـرف مـن يُسَـمَون ب (الفَقِيـهْ) أو (الطَّالِـبْ) المحـدودي العـدد.

2 . لا يسـتعمل المتعلمـون العربيـةَ الأدبيـةَ (الفصحـى) أثنـاء التحـدث، وتقتـصر قواعدهـا في الكتابـة فقـط.

3 . الفـرق الوحيـد بـين الطالـب أو الفقيـه وغـيره في المحادثـات العامـة يكمـن في الأسـلوب، أمـا عـدا ذلـك فالجميـع يسـتعمل الكلـمات نفسـها بطريقـة النطـق نفسـها عـلى الرغـم مـن أنهـا لا تكـون عربيـةً أدبيـةً.

4 . الـذي يتقـن العربيـة العاميـة ليـس بمقـدوره فهـم الجميـع فقـط، ولكنـه يكـون قـادرا عـلى أن يجعـل نفسـه مفهوما لجميـع المواطنـين دون تمييزٍ أو اسـتثناءٍ، في حـين مـن يجيـد العربيـة الفصحـى لوحدهـا سـيكون مفهومـاً مـن طـرف المتعلمـين فقـط.

وعليـه يـصرح لورشـندي أنـه لا يكتـب للمتعلمـين الذيـن يكمـن دورهـم في استكشـاف الكنـوز الـواردة في الكتـب الأدبيـة والشرقيـة، لأن هـذا يقتـصر فقـط عـلى العربيـة الأدبيـة التـي تسـتطيع القيـام بهـذه الخدمـة. فدراسـته، كـما يوضـح ذلـك، سـتكون مفيـدةً لصالـح كل مـن يريـد ربـط الاتصـال مـن أيِّ نـوعٍ مـع المغـرب.

ففـي سـنة 1861م، وعندمـا كانـت القـوات الإسـبانية لازالـت تحتـل تطـوان، وعندمـا بـدأت الأطـماع ترصـد المغـرب، انصـب فكـر لورشـندي أولا نحـو ماهية الوسـائل التـي قـد تسـهل اكتسـاب اللغـة في البـلاد، لـذا كـرس كل جهـده للقيـام بهـذا العمـل دون سـواه لغـرض التواصـل مـع المواطنـين بنـاءً عـلى مختلـف العلاقـات التـي يمكـن أن تنشـأ بـين المغـرب وإسـبانيا الآن أو في المسـتقبل.

ولم ينـس لورشـندي التذكـير بالصعوبـات الكثـيرة التـي رافقـت هـذه الدراسـة، والتـي يـأتي في مقدمتهـا عـدم وجـود أيِّ راهـبٍ في البعثـة مُلـمٍّ باللسـان العـربي، إضافـةً إلى عـدم وجـود كتـبٍ لهـذا الغـرض، حيـث كـما يقـول الباحـث »إني لا

(1) نفسه، ص.IX

أعـرف أيَّ دراسـةٍ أو أطروحـةٍ حـول العاميـة المغربيـة سـواءً إسـبانيةً أو أجنبيـةً»[1]، **إضافـة إلى صعوبـة إيجـاد مغـربي مـن شـأنه تقديـم المسـاعدة المتمثلـة في التعليم المســتمر التطبيقي.**

وقـد جـاءت هـذه الدراسـة بنـاءً عـلى طلـبٍ مـن بعـض رجـال الديـن وبعـض العلمانيـين، وامتثـالا لأوامـر رئيـس لورشـندي، الـشيء الـذي حتـم عـلى الباحـث وضـع هـذه الدراسـة منظمـةً مـع إعطائهـا شـكل النحـو المتبـع فيهـا، وقـد حـاول أن تخضـع هـذه الأساسـيات للقواعـد انطلاقـا مـن التعابـير المسـتعملة في المغـرب[2].

ويختـم لورشـندي مقدمتـه بـأن الهـدف الرئيـسي مـن هـذا الكتـاب هـو تسـهيل التفاهـم والتكلـم بالعربيـة المغربيـة العاميـة، كـما يشـير إلى أن عملـه يمكـن أن يكـون ناقصـاً عازيـاً ذلـك إلى أنـه لم يجمـع فيـه بـين النظريـة والتطبيـق، وفي هـذا الصـدد يقـول: «**لـكي تكـون مُـلمّاً بالعربيـة العاميـة، اللغـة الحيـة، لا بـد مـن التحـدث بهـا والاسـتماع إليهـا منطوقـة**»[3].

أمـا فرانسيسـكو سـيرفيرا فقـد اسـتهل مقدمـة الطبعـة الثانيـة مـن الكتـاب بالإشـارة إلى دور الفتوحـات الإسـلامية في انتشـار العربيـة في كلٍّ مـن مـصر وسـوريا، مـع تمديـد هـذه الفتوحـات إلى جميـع شـمال إفريقيـا مـن البحـر الأحمـر إلى المحيـط الأطلـسي عـبر القنـاة (التـي ستسـمى بعـد ذلـك جبـل طـارق)، وقـد امتـد هـذا الانتشـار إلى إسـبانيا وفرنسـا خاصـة في مـا يتعلـق بالقواعـد الدينيـة واللغـة الغنيـة المتناغمـة، فكـما هـو معـروفٌ، اللسـان العـربي تحكمـه تعاليـمُ وقواعـدُ صارمـةٌ، إضافـةً إلى قوانـينَ جامـدةٍ rigid laws. وقـد تزامنـت هـذه الفتوحـات باختـلاط العربيـة بالعديـد مـن الكلـمات المأخـوذة مـن اليونانيـة والفارسـية واللاتينيـة، أو مـن بعـض اللغـات المسـتعملة مـن طـرف الشـعوب المقهـورة.

ولأن السـكان يعارضـون القيـود والقوانـين التـي تقيدهـم خاصـة في التواصـل مـع بنـي جنسـهم، بـدأت القواعـد النحويـة يصيبهـا النسـيان مـع ظهـور تشـكيلاتٍ

(1). نفسه، ص X.

(2) نفسه.

(3). نفسه، ص XI.

وانحرافـاتٍ جديـدةٍ، وتـم الاعـتراف بالألفـاظ والالتـواءات الغريبـة في اللسـان العـربي الحـالي، الـشيء الـذي سـاهم في نشـأة قواعـدَ ومسـتوًى لغـويٍّ جديـدٍ معـروفٍ لـدى الأوروبيـين كابتـذال للعربيـة الأدبيـة/ الكلاسـيكية، التـي تتبـع القواعـد النحويـة والمسـتعملة في الكتـب والمخطوطـات بجميـع أنواعهـا، إلا أنهـا لا تُسـتخدم الآن في المحادثـات العامـة[1].

كـما يضيـف فرانسيسـكو سـيرفيرا إلى أن هنـاك العديـد مـن الدراسـات المنشـورة باللغـة الفرنسـية حـول العربيـة الجزائريـة المحكيـة، مقابـل القليـل مـما كتـب حـول العربيـة المغربيـة المحكيـة. فالأعـمال الوحيـدة التـي كانـت معروفـةً آنـذاك هـي: دراسـة فرنسـيس دومبـاي (1800) Grammatica Linguae Mauro-Arabicae juxta Vernacuti idiomatis usum، وهـو كتـابٌ صغـيرٌ بعيـوبٍ مـن ناحيـة دقـة نطـق الكلـمات أو حتـى مـن خـلال عـدم وضـوح بعـض الصفحـات، أو فقدانهـا بالكامـل.

وبأمـر مـن الملـك تشـارلز الرابـع بتاريـخ دجنـبر/ ديسـمبر 1798م، أنيطـت مهمـة السـفر إلى المغـرب لدراسـة اللهجـة المغربيـة لـكلٍّ مـن الآبـاء: باتريسـيو دي لا تـوري Patricio de la torre، ومانويـل بـاكاس ميرينـو Manuel Bacas Merino، وخـوان دي أرسي Juan de Arce، مـن أجـل جمـع المـواد اللازمـة لإنشـاء معجـمٍ/ قامـوسٍ، أو عـلى الأقـل للإعـداد للنـشر بحـروفٍ عربيـةٍ، وهـو العمـل الـذي تـم نـشره سـنة 1805م بغرناطـة Granada لـلأب بيـدرو دي الـكالا Pedro de Alcalá، تحـت عنـوان المفـردات القشـتالية العربيـة Vocabulista Castellano arábigo[2].

وبعـد ذلـك تُوجـت جهـود الآبـاء باتريسـيو ومانويـل وخـوان بنـشر العمـل الآتي: Vocabulista castellano arábigo compuesto y declarado en lengua y letra castellana por el M. H. P Fr. ترتيـب سـان جيرونيمـو، وتصحيـح وزيـادة الحـروف العربيـة باتريسـيو دي لا تـوري.

وقـد طُبـع هـذا العمـل في السـنوات الأولى مـن القـرن 19، ويتضـح مـن خـلال

(1) نفسه.

(2) نفسه، ص XIV.

بعض النسخ منه أنه لم يستعمل كثيراً وأنه معروفٌ عند القلة القليلة فقط، كما أن النسخة الوحيدة المعروفة هي تلك الموجودة في مكتبة الأسكريال التي لا يتعدى طولها مقدار الكف، الشيء الذي يدل على عدم الانتهاء من طباعة هذا الكتاب[1].

أما العمل الآخر فقد كان هو: اختصارٌ نحويٌّ في درس العربية على الكيفية اللغوية والعامية Compendio gramatical para aprender la lengua arabigo asi sabia como vulgar، لصاحبه مانويل باكاس ميرينو Manuel Bacas Merino، ويعتبر هذا العمل وجيهاً إلا أن عدد نسخه قليلةٌ، وقد نشر سنة 1807م بمدريد[2].

وإضافةً إلى الأعمال السابقة، ألف الأب خوصي ماريا لورشندي عملاً نحويّاً رائعاً، نُشر بمدريد سنة 1872، وهو المعنون ب »أساسيات العربية المغربية المبتذلة»، الذي بالإضافة إلى شرح قواعد اللغة المغربية، أو كما سماها فرانسيسكو سيرفيرا (قواعد اللسان المغربي المشترك the common Morish tongue)، نجد العديد من التمارين والتراكيب على امتداد الدراسة التي قام بها، مطبقا بذلك مفهوم ازدواجية العمل بالنظرية والتطبيق، الشيء الذي من شأنه أن يساهم في تيسير فهم العامية العربية المغربية[3].

وقد نفذت الطبعة الأولى من هذا العمل، فطُبِع الكتاب طبعةً ثانيةً منقحةً ببعض التحسينات والإضافات من بينها ترجمة الكلمات العربية بأحرفٍ لاتينيةٍ، وذلك بعد أن لام الناس نظام الترجمة المعتمدة في النسخة الأولى، على الرغم من صعوبة أو استحالة ترجمة الكلمات بالدقة التي توجد فيها بالعربية، وهذا ما جعل الكاتب يحاول تقريب الترجمة إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ من النطق العامي للكلمات، كما حذف الحروف المزدوجة من الكلمات التي كانت تشكل عائقاً أو تشويشاً خاصةً أمام المبتدئين.

وقد أضيف إلى ملاحق الطبعة الأولى كيفية التعامل مع الحالات السماعية للهجة المغربية، ويتعلق الأمر بطريقة النطق وتقسيم المقاطع.

(1) نفسه.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص XV.

ويؤكد فرنسيسكو سيرفيرا أن لورشندي لم يعتمد طريقة التكرار الشاقة المعتادة التي عُرف بها آهن Ahn وأوليندورف Ollendorff، حيث اعتمد نظاماً أبسطَ من روبرتسون Robertson الذي يعتمد على تكييف أفضل الأشخاص الذي اعتادوا على الدراسات الأدبية، وذلك من خلال «لغةٍ واضحة، وطباعةٍ ممتازة، وأخطاء مطبعيةٍ نادرة، وبحثٍ تميزه الأصالة والجِدَّة، كما له فائدةٌ واضحةٌ، وجميع الصفات التي تخول للعمل الحصول على استحسان الإدارة الحكومية، التي لا يمكن أن تنكر دور أساسيات الأب لورشندي»[1].

فلورشندي ليس بحاجةٍ إلى تمجيد الجدارة من خلال هذا العمل، أو الحث على فائدة الكتاب لأشخاصٍ أكثرَ كفاءةً منه، خاصةً وأن المستعرب الإسباني اكتسب من خلال عمله هذا التحية والإشادة من أفضل المستعربين، ومثال ذلك:

رسالة الأكاديمية الملكية الإسبانية في إيفادٍ واضحٍ إلى المدير العام للتعليم العام، التي جاء فيها: «**الأب لورشندي أعطى لعمله طابعاً مميزاً، من دون الانحراف عن المنهجية الموضوعية والعلمية**»[2].

أما مترجم الكتاب إلى الإنجليزية جيمس ماكليود سنة 1900م، فهو في مقدمته يعتبر أن ترجمته إضافةٌ إلى عمل لورشندي، ومساعدةٌ للذين يرغبون تعلم العربية المغربية ولا يجيدون اللغة الإسبانية، كما يضيف أنه لغاية الآن (1890م) فالكتاب الوحيد المخصص للتلاميذ الذي يتحدثون الإنجليزية كان لجيمس إدوارد بادجيت James Edward، والمعنون ب (مدخل إلى العربية المغربية 1881 (Introduction to the Arabic of Morocco)م، الذي اعتمد على تقنية الحوار والمحادثة لكنه طبع للأسف بالحروف اللاتينية فقط[3].

والأكيد أن إسهامات المستشرقين في دراسة اللهجات العربية، خاصةً العامية المغربية، لا تزال تحتاج دراساتٍ موضوعيةً ومستفيضةً تكون متخصصةً بعيداً عن تعميم النتائج المقرون بدافع الحماس مع المستشرقين

(1) نفسه، ص XVI.

(2) نفسه.

(3) نفسه، مقدمة الطبعة الإنجليزية.

أو ضدهم. وتبقى من أهم الوسائل اللازمة في تتبع أعمال المستشرقين، التركيز على الأعلام الذين كان لهم باعٌ طويلٌ، فينصب الاهتمام على مستشرق واحدٍ ويُدرس من جوانبَ متعددةٍ، تُذكر فيها جهوده، كما تُذكر المآخذ عليه، وبهذا يمكن تجميع نتائج الدراسات للخروج بحكمٍ تعميميٍّ على المستشرقين في مواقفهم من الدارجة المغربية، ومناهجهم في دراستها، وإن كان من الصعب الخروج بأحكامٍ تعميميةٍ في ظاهرة الاستشراق لتوسعها وتشعبها، ولكن يبقى تتبعُ الأعمالِ اللغوية كفيلاً بالإجابة عن مجموعةٍ من الأسئلة ظلت قائمةً بسبب عدم الاهتمام بالدارجة المغربية واللهجات العربية، فتتبع هذه الدراسات تاريخيّاً، ووصفها تحليليّاً وتفسيريّاً، من شأنه مساعدتنا على ربط الماضي بالحاضر، والوقوف على أهم التغيرات، إن هي وقعت، من الناحية المعجمية والتركيبية والوظيفية.

هذا دون نسيان أن دراسة اللهجات العربية أصبحت محط أنظار العديد من الجامعات العالمية، بل أصبحت تُخصَّصُ لها كراسٍ لتدريسها، ويمكن أن نشير هنا إلى ما يعرف بتدريس العربية للناطقين بغيرها (TAFL)، حيث التركيز على العربية في مستويَيْها الفصيح واللهجي، خاصةً في ما يجب أن يتوافر في أستاذ العربية للناطقين بغيرها من: بُعدٍ لغويٍّ، وبُعدٍ تربويٍّ وتدريسيٍّ، وبُعد ثقافيٍّ، وبُعد تقنيٍّ. وإن كنا نسجل أن بعض المراكز والمعاهد الخاصة على قِلَّتها هي قِبلة الأجانب الراغبين في إتقان اللسان العربي الفصيح والمغربي، فالجامعات المغربية ما زالت لم تفتح أبوابها لاستقطاب الطلبة الأجانب الراغبين في إتقان الفصحى واللهجة العربية المغربية مقارنةً بالجامعات العربية والدولية.